

مجلة المجلات

اللغة العربية

الإستاذ أحمد العايد
(الجزائر)

نشرت مجلة «الفكر» الفراء التي تصدر بتونس مقالا للإستاذ أحمد العايد
تحت عنوان « اللغة العربية » ننشره شاكرين :

والفرنسية ، على أن كل صنف من هذه الأصناف قد يملك مبادئ اللغة الأخرى بالنسبة الى اللغة التي حصلت بها ثقافته ، لكنها مبادئ في معنى النبذ الطفيفة الخفيفة التي لا تفني ولا تسمن من جوع كما يقال .

ونعود اليوم الى اللغة العربية لنبدي في شأنها بعض الآراء والخواطر ، مساهمة متواضعة منا في ايجاد الحلول التي نراها صالحة في العاجل وفي الأجل للمشكل أو المشاكل التي تثيرها باعتبارها لغة تديبة ولغة حديثة ولغة معصرية حية تريد أن تجاري اللغات العالمية الأخرى فتصبح أداة التعبير والتأليف في المجالات الاقتصادية والعلمية والتقنية خاصة فضلا عن المجالات الأدبية والفلسفية ومبادئ العلوم الإنسانية الأخرى اطلاقا .

وعندما أقول هذا مكان اللغة العربية ما زالت متأخرة عن ركب اللغات الحضارية العالمية العصرية أو كأنها ما زالت عاجزة عن أداء رسالتها الثقافية والتعليمية والتأليبية في أعلى مستوى ، بل قل أن هذا ما قد يقادر الى ذهن السامع أو القارئ لهذه الأسطر من أول وهلة .. والمشكل في الحقيقة ليس فيما تكررت الآن وإنما هو في تزامم اللغة الفصحى واللغة العامية الدارجة في مختلف ميادين النشاط أو الحياة اليومية ، سواء في الإذاعة والتلفزة أو المنزل أو الشارع أو حتى التأليف الأدبي كما سنرى .

لا يزال مشكل اللغة العربية - الفصحى والدارجة واللغة الثالثة - يشغل بال الكثيرين من مثقينا في تونس ، وقد تناوله بالبحث عدد من رجال الفكر والأدب ورجال التعليم والطلبة ، والقيست في محاضرات وكتبات وبسطات ونظمت ندوات وسهرات وأسماز ، سواء بدور الثقافة أو بالنوادي الأدبية أو محلات اللجان الثقافية وغيرها في شتى أنحاء الجمهورية ولاسيما منذ الاستقلال الى اليوم .

وإن الدواع التي ركز عليها أغلب من تكلم أو كتب في اللغة العربية من حيث وضعها التاريخي القديم والحديث وإمكاناتها ومكانتها وأهميتها في حياة الأمم الناطقة بها - ومن بينها تونس - تنقسم الى ثلاثة :

أولا : أن العربية هي لغة القرآن ، يحق لنا أن ننكب على درسها ونعتر بها باعتبارنا مسلمين .

ثانيا : أنها عنصر من عناصر ثقافتنا وقوميتنا يحق لنا كذلك أن نبحث عن طرق ترميمها ووسائل إحيائها وانعاشها والحاقها بركب اللغات العالمية العصرية المعترف بها والمتعامل بها في المحافل الدولية .

ثالثا : أنها - إذا صح التعبير - « مشكل اجتماعي » بالنظر الى أن المجتمع التونسي مثلا - وكذلك الشأن بالنسبة الى الجزائر أو المغرب الاتصى على سبيل المثال - يشتمل على ثلاثة أصناف من المثقفين باللغتين العربية والفرنسية ، وصنف المثقفين باللغة الفرنسية وصنف المثقفين باللغتين العربية

وان ما نعتزم النظر فيه بهذا الصدد هو ، من ناحية ، وضع الفصحى التاريخي ، قديمه وحديثه ، ثم وضع اللغة الدارجة وامكانياتها ومكانتها في حياتنا اليومية ، ثم النظر في مستقبل العربية وتطورها أو بمقابلة اخرى اية لغة نريد ، فصلى مبسطة او دارجة مهذبة او لغة ثالثة هي بين الاولى والثانية ؟

1 - الفصحى : يرى الدارسون ان الفصحى لا يمكن ان تفضى عنها الطرف وانه لزام علينا ان نوليها كل اهتمام وعناية والا نترك الدارجة تزاخمها او تسابقها وذلك في ميدان التأليف خاصة ومختلف ميادين العمل والنشاط لان الفصحى هي لغة القرآن ولغة القواميس والمناجد ولغة الآثار الادبية قديما وحديثا ، هي لغة عبد الحميد الكاتب وسهل بن هارون وابن المقفع والجاحظ وابى حيان التوحيدي وابن شرف وابن رشيق والحصري وابن شهيد وابن خلدون كما هي لغة السعدي وطه حسين ، هي لغة القصة اليوم والمسرحية والنقد الادبي ولغة الخطابة في المساجد والمناسبات الرسمية ..

ثم لانها لغة العلوم والفلسفة وعلم الكلام والعلوم الدينية قديما بالخصوص ، ثم هي لغة الصحافة المكتوبة والمذاعة والتلفزة حديثا ولغة التعليم في المدارس والمعاهد والكليات ولاسيما بالنسبة لحصص اللغة والنحو والادب العربي في كلية الآداب والعلوم الانسانية او بالنسبة لبعض المواد الاخرى مثل التربية الدينية والمدنية في مرحلتى التعليم الابتدائي والثانوي ، الخ ...

لكن هل هي لغة العلوم والتقنيات الحديثة وهل هي لغة العصر في ميدان البحوث والاكتشافات العلمية والتقنية المعاصرة ، او - بمقابلة اخرى - هل يمكن للعربية ان تكون أداة تبليغ وتأييد اليوم في مثل هذه الميادين ؟

ان الجواب على هذا السؤال ، او ان ما يعترض العربية من مشاكل الاداء والتعبير فيما فكرت من مجال البحوث والاكتشافات العلمية والتقنية ، يعرفه اولا وبالذات كل من يعمل بمراكز التعريب والترجمة او بالجامع العلمية خاصة ، فاهل مكة ادرى بشعابها ، ولغائل ان يقول ان هناك حلا ... وهو الترجمة ، والراي عندي ان الترجمة من الهول الضرورية لكن غير الكافية لان المسألة ليست في نقل ما يصنعه الغير لحسب والاخذ من الاطبا من البعثة والعلماء ، بل ان يبدأ هذا ضروريا فهو لا يهل لمشكل اللغة العربية لجعلها لغة عصرية هائلة تناطح السحاب والنجوم او

قل القمر على سبيل الواتمية ، كما فعلت اللغة الانجليزية بالولايات المتحدة الامريكية اليوم ، نتكلم بها الرواد على سطح القمر ، وفي هذا من الاشارة والرمز ما يكفي تمبيرا عما نريد وتبليغا لما نقصد ..

وفي سياق ما ذكرنا آنفا ، أصبحت اللغة العربية كذلك لغة « يتعامل بها » باليونسكو ، مما يزيد مشكل النهوض بها و « تمصيرها » حدة واهمية .

2 - اللغة الدارجة : وضعها وامكانياتها :

ان نظرة الاغلبية الساحقة من المثقفين الى اللغة العامية هي نظرة « احتراز » ان لم نقل نظرة ازدراء وتمنع ، رغما من كونها لغة التخاطب اليومي في المنزل والشارع والادارة وفي اروقة المدارس والمعاهد والكليات فهي اذن اللغة السائدة بين الناس دون الفصحى التي ميدانها محصور في مئات المتعلمين والمثقفين ، والسبب في انحصار ميدان الفصحى ذلك ، واتساع نطاق العامية في تونس مثلا هو ان الآباء والأجداد لم يدرسوا - بكليتهم - اللغة العربية الفصحى ولم يتقنوها حتى تصبح بينهم لغة التخاطب ، و « التعامل » اليومي ، وهذا راجع الى ان تعليمها لم يكن منتشرا كما هو راجع بوجه عام الى الوضع التاريخي القديم الذي كانت عليه البلاد في مختلف جهوده واطواره ، ابتداء من المهد القرطاجني الى ما قبل الاستقلال . وقل ذلك بالنسبة الى الكثير من البلدان الناطقة بالعربية ، ما قرب منها او ما بعد ...

اما فيما يتعلق بوضع اللغة العامية وامكانياتها في ميدان التأليف اليوم بتونس فنلاحظ انها اندرجت منذ زمان في ميدان التأليف ، من ذلك مثلا المسرحيات الاذاعية او التلفزيونية التي عرضها التيلية او التربية الاخلاقية بدرس مواضع اجتماعية ، كما أصبحت لغة النشرة الاخبارية الخاصة بعموم الناس او التعليق باللسان الدارج ، ومن هنا يتسنى لنا القول ان اللغة الدارجة قد أخذت مكانها بعدد كبير من برامج الاذاعة والتلفزة ، فعرضت نفسها عرضا بحكم الواقع اي الوضع الحالي للمجتمع التونسي الذي ما زال في حاجة الى الدارجة ليكون مطلقا على ما يجري في البلاد والعالم من احداث واخبار ، الخ ...

ثم ان اللغة العامية قد اكتسحت من ناحية اخرى ميدان التأليف الادبي وخاصة القصة ، ونذكر في هذا الشأن على سبيل المثال محاولات الاديبين محمد العروسي الطوي والبشير خريف وغيرهما ممن أتحم

اللغة الدارجة الى جانب الفصحى لخللها بها باعتبار ان اللغة العامية قادرة احيانا على اداء المعنى المطلوب بأكثر واتمية وحيوية من الفصحى .

وإذا نظرنا في مستقبل اللغة الدارجة وخاصة في المجال الذي تستعمل فيه اليوم نرى ان نشر التعليم سيكون له مفعوله - أكثر فأكثر - في تهذيب هذه اللغة وصلتها ويجدر ان نلاحظ في هذا المجال ان اللغة الدارجة التي أصبحنا نتكلم بها اليوم ليست نفس اللغة التي يتكلم بها آباؤنا وأجدادنا منذ ثلاثين سنة ، وانها قد نمت وتهذبت ولاسيما بعد الاستقلال أي في بحر الخمسة عشر عاما الأخيرة ، والسبب في ذلك راجع - كما قلنا - من ناحية الى نشر التعليم ومن ناحية أخرى الى تأثير خطب الرئيس وخطب المسؤولين وتأثيرها في الناس وطبع لغتهم بطابعها ومن جهة ثالثة الى تأثير الحصص الإذاعية ثم التلفزيونية التي تعددت وتنوعت .

ومن شأن كل هذه العوامل ان تتفاعل وتساعد على تهذيب اللغة الدارجة وتقربها من الفصحى شيئا فشيئا على مر السنين .

اللغة الثالثة : وبما لا يجب اهماله ان ما نسميه او ما سماه بعضهم باللغة الثالثة كانت هي ايضا محاولة جربت في ميدان التأليف الأدبي وخاصة منه المسرحي وقد ظهرت هذه البادرة في مسرحيات توميق الحكيم ومحمود تيمور ، وحقبة هذه اللغة أنها بين الفصحى والعامية ، لها علاقة بالفصحى من حيث مראعاتها لقواعد النحو والصرف والرسم المتعارفة ، ولها صلة بالعامية من حيث بساطة الفاظها وتراكيبها وحتى النطق بها بالوقوف على السكون مثلا وهي محاولة طريفة يمكن تمييزها لحل مشكل الفصحى والعامية أي انتهاز التأليف والتعبير بلغة سلسلة طبيعة يفهمها الخاص والعام ، لكن انتشار مثل هذه اللغة الثالثة متوقف الى حد كبير على انتشار التعليق وامتساحه كل أصناف المجتمع ، الشأن في هذا المجال شأن الفصحى أو يكاد ...

3 - كيف نهض باللغة العربية ؟

ليس الحل في الترجمة بحسب إذ هي كما رأينا ضرورية لكن غير كافية ، وانما الحل في تكوين اطارات كافية من حيث العدد والقيمة أي كما وكيفا كما يقال ، اطارات في أعلى مستوى تادرة على الخلق والابتكار والتأليف في ميدان العلوم والتقنيات خاصة ، أي تكوين

بحاثة وعلماة قادرين على مجازاة البحاثة والعلماة الامريكان والاوربيين في ميدان البحث والاكتشاف والاختراع بالمخابر العلمية ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى يشترط في هؤلاء البحاثة والعلماة ان يتضلعموا في العربية ليعبروا بها عن آرائهم ويصنفوا بها الكتب والمقالات . الحل اذن ينحصر في تكوين العقول والادمغة لا في الترجمة فحسب .

فاذا ظهروا الى الوجود - والمسألة مسألة زمن - أصبحوا قادرين على فرض لغة عربية علمية عصرية ، فنقتحم هذه اللغة المحافل العلمية والسياسية الدولية تقديرا للناطقين بها من أجل علومهم ومساهماتهم في تحقيق التطور البشري والتقدم الحضاري على صعيد عالمي . هذا هو الحل في الأجل ، لان الحياة على مراحل والتطور كذلك .

أما الحل في العاجل فهو ما بادرت اليه تونس وهو استعمال اللغة الفرنسية الى جانب اللغة العربية ، على ان هذا الحل قد يطول أمده ، ولا خير في استعمال اللغتين العربية والفرنسية ، بل حتى أكثر من لغتين في عالمنا اليوم ، عالم الحضارة والعلوم والتقنيات والاكتشافات المتعددة المتعاقبة ، علم غزو القمر والتحليق في الفضاء ، نريد فيه ان نلتحق بالأمم المتقدمة التي سبقتنا أشواطا وأشواطا في ميدان البحث العلمي والاختراع والاكتشافات التقنية .

وهكذا فان اللغة التي يمكن ان تصبح أداة التأليف العلمي والتدريس بالمعاهد والكليات هي اللغة الثالثة التي تعرضنا لها آنفا بشرط ان يخلتها ويفرضها - بالتأليف فيها قبل كل شيء - جمع البحاثة والعلماة الذين ننتظرهم سواء في ميدان الرياضيات أو العلوم الفيزيائية أو علوم الذرة وغزو الفضاء ، أو الطب في المخابر بالخصوص .

وإذا ما وصلنا الى هذا الطور ، الذي تصبح فيه اللغة العربية - اللغة الفصحى المبسطة - لغة التدريس والتأليف بمختلف مراحل التعليم ، فلا بد من الحفاظ على اللغة الفرنسية واللغة الانجليزية أو الألمانية وغيرها من اللغات العالمية الحية بمدارسنا حتى يبقى التفاعل أو التبادل أو التلاقح حاصلًا بين الحضارات والثقافات فنكون هكذا قد حققنا ما نصبو اليه من تدميم ثقافتنا على أسس تومية وأصيلة من ناحية ، وفتح من ناحية أخرى على العالم الخارجي .

ولئن كان من السهل اليوم ان ندرس اللغات والعلوم الانسانية او مددا منها على الأقل باللغة

دون الآخر ، مما يجعل وسيلة التفاهم والتخاطب صعبة متعددة .

خالل أن هو لفائدة لغة عربية فصحى بسيطة
تعرض نفسها مع الزمن بفضل عدة عوامل .

ومن هذه العوامل بالنسبة الى بلادنا ، انتشار التعليم وعناية الحكومة بتطوير اللغة العربية وتنميتها في نطاق التدريس والتأليف من الحفاظ على اللغسات الأجنبية وخاصة الفرنسية باعتبارها اللغة العلمية المناسبة القريبة من الأغلبية الساحقة من التونسيين ضمنا لبقاء التفتح على الثقافات والحضارات الأجنبية والتفاعل مع العالم الخارجي وتحاشي الانكماش والانغلاق على النفس .

وخالصة القول فقضية اللغة العربية هي قضية
تطور زمني ، مرتبطة ارتباطا وثيقا بانتشار التعليم الى أن يكتسح كافة أبناء الشعب التونسي بنسبة تربية من النسبة المثلثي أي ما يقرب من مائة بالمائة ، كما هو الشأن في البلدان المتقدمة التي مرت على استقلالها عقود من السنين ، وهي قضية تكوين اطرار عالية كفاءة متندرة على البحث والاختراع والتأليف وبالتالي على مرض لغة مجددة بسيطة منقحة لها تواجد الفصحى مع تراكيب والفاظ واصطلاحات قريبة من الازهان ، يفهمها الخاص والعام . كما هي قضية عنابة من طرف المسؤولين بتطويرها ونشرها كما هو الشأن بتونس ، وعلى صعيد اممي ، من طرف المسؤولين بمختلف الاقطار الناطقة بها .

نعسى بذلك أن تصبح الى جانب اللغة الفرنسية او الانجليزية او الالمانية او الاسبانية لغة « التعامل » في المحافل الدولية السياسية والمنظمات الثقافية والعلمية والاقتصادية والاجتماعية العالمية .

العربية ، فان كثيرا من المشاكل ما زالت قائمة في وجه هذه اللغة : ومنها صعوبة تعريب العلوم والفنون المعنية كلها في الاجل ، وقلة الاطارات الكفاة والكافية في ميدان التدريس العالي باللغة العربية ، وكذلك ادبار الشبان من الطلبة والطالبات من العربية كما دلت على ذلك التجربة الاخيرة الرامية الى احصاء ساعة عربية في مختلف شعب التدريس الجامعي ، الخ .

وان دل هذا النفور منهم على شيء فهو يدل على نوع من المركبات ، مركب الشعور بالنقص ، المتمثل في الازدراء والاستعلاء تجاه هذه اللغة .

اما فيما يتعلق باللغة الدارجة ونصيها من الاستعمال فقد ينحصر - على الصعيد الداخلي - في الميادين التي تسربت اليها اليوم ، سواء بالاذاعة والتلفزة او ميادين التأليف المسرحي لبعض الروايات المسلية او ذات النزعة التربوية الاخلاقية والاجتماعية لعرضها بالاذاعة او التلفزة فضلا عن ميدان التخاطب بالمنزل والشارع والادارة .

على أنه من المسير أن نتصور اللغة الدارجة هي اللغة الرسمية المثلث التي قد تصبح لغة التأليف والتدريس أو نشر العلم والثقافة في أي بلد من اقطار المغرب أو المشرق وهذا راجع - اذا وضعنا المشكل على الصعيد الأممي بين هذه الاقطار - الى ان لكل بلد من هذه البلدان لفته الدارجة ولهجته ومصطلحاته الخاصة : فكلية « شنطة » المصرية مثلا لا انفها وأهم مكانها لفظة « فليجة » رغم أن هذه اللفظة أعجمية غير عربية لكنها تستعمل في الدارجة التونسية. وقل مثل ذلك بالنسبة الى الكثير من الكلمات ذات الاصل التركي أو الفرنسي التي تزخر بها اللهجات العامية في مختلف الاقطار العربية والتي تستعمل في بلد